غزوة بني النضير

في ربيع الأول سنة ٤ هـ

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرَّقون على الإسلام والمسلمين، إلاَّ أنهم لم يكونوا أصحاب حَرْبٍ وضَرْبٍ، بل كانوا أصحاب دَسٍّ ومؤامرة، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة، ويختارون أنواعاً من الحيل لإيقاع الأذى بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال.

ولكنهم بعد وقعة أُحُد تجرأوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وهاهم بنو النضير ينقضون عهدهم مع رسول الله ﷺ وكان ذلك بعد بَدْر بستة أشهر، كما ذكر البخاري.

سبب الغزوة:

قال عروةُ: لمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، وكلَّمهم أن يُعينوه في دِيَةِ الكلابِيَّيْن اللَّذَيْن قَتَلَهما عمروُ بن أُميَّة الضمرى.

قالوا: نفعل يا أبا القاسم، أجلس هَاهُنا حتَّى نقضي حاجَتَك.

ثُمَّ خلا بعضُهم ببعض، وسَوَّل لهم الشيطانُ الشَّقَاءَ الذي كُتِبَ عليهم فتآمَرُوا على قَتْله ﷺ وقالوا: أيُّكُم يأخُذُ هذه الرَّحَا، ويصعد فيُلقيها على رأسه، يَشْدَخُهُ بها؟

فقال أشقاهم عمروُ بن جحاش: أنا.

فقال لهم سَلاَّمُ بن مِشْكَم: لا تفعلوا؛ فوالله ليُخْبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنَقْضُ العهد الذي بيننا وبينَه.

وجاء الوحي على الفَوْر إليه من ربِّه - تبارك وتعالى - بما هَمُّوا به، فنهض مُسرِعاً، وتوجَّه إلى المدينة، ولحِقَهُ أصحابُه، فقالوا: نَهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما هَمَّت يهودُ به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخْرُجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجَّلتُكم عشراً، فمَن وَجَدْتُ بعد ذلك بها ضَربتُ عُنُقَهُ».

ابن أُبَي يحرض اليهود على عدم الخروج:

أقام بنو النضير أيَّاماً يتجهزون، فأرسل إليهم المنافقُ عبدُ الله بنُ أُبَيّ: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي أَلْفَيْن يدخلون معكم حِصْنَكم، فيموتون دُونكم، وتنصُركم قُرَيْظَة وحُلفاؤكم من غَطَفَان.

وطَمع رئيسُهم حُيَيُّ بنُ أَخْطَبُ فيما قال له، وبعث إلى رسول ﷺ بقوله: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بَدَا لك.

فَكَبَّر رسولُ الله وأصحابُه، ونهضوا إليه، وعليٌّ بن أبى طالب يحمل اللواءَ، فلمَّا انتهى إليهم، قاموا على حصونهم يرمون بالنَّبْل والحجارة، واعتزلتهم قُرَيْظَة، وخَانَهم ابنُ أُبَيٍّ وحُلفاؤهم من غَطَفَان، ولهذا شبَّه - سبحانه وتعالى - قصَّتَهم، وجعل مثَلهم ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ**﴾(١).

فإن سورة الحشر هي سورةُ بنى النَّضير، وفيها مَبْدَأُ قصتهم ونهايتها.

الرسول ﷺ يُحاصر بني النضير:

أخرج البخارىُّ ومسلم من حديث عَبْد اللَّه - رَضِي اللَّه عَنْهما - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضير وَقَطَعَ وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ(٢))(٣).

فأنزل الله تعالى: ﴿**مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**﴾(٤).

---

(١) الحشر: ١٦ .

(٢) الْبُوَيْرَةُ: موضع نخل بنى النَّضير.

(٣) البخاري - كتاب المزارعة، حديث رقم ٢١٥٨، كتاب المغازي، حديث رقم ٣٧٢٨، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٠٥، مسلم - كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٢٨٤.

(٤) الحشر: ٥.

فأرسلوا إليه ﷺ: نحن نخرج عن المدينة.

فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبلُ إلا السلاح، وقبض النبي ﷺ الأموالَ والحَلْقَةَ

وكانت بنو النَّضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يُخَمِّسَها؛ لأن الله أفاءَهَا عليه، ولم يوجَفُ[١] المسلمون عليها بخَيْل ولا رِكَاب.

أخرج البخارى عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضير مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِمَّا لَمْ يُوجِفِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلاحِ وَالْكُرَاعِ[٢] عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[٣].

ما نَزَلَ في بنى النَّضير من القرآن:

نزل في بنى النَّضير سورةُ الحشر بأَسْرِهَا، يُذْكَرُ فيها ما أَصَابهم الله به من نِقْمَته، وما سَلَّط عليهم رسولَهُ ﷺ وما عمل به فيهم:

فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾[٤].

ثم قال الله عن المنافقين: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا**﴾ يعنى عبدالله بن أُبَىّ وأصحابه ومَنْ كان على مثل أمرهم ﴿**يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ**

---

(١) الإيجاف: سرعة السير، وهو كناية عن الجهاد والقتال.

(٢) الْكُرَاع من الإنسان: ما دون الركبة إلى الكعب، ومن الدوابّ : ما دون الكَعْب.

(٣) البخاري – كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٨٩، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٠٦، مسلم – كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ٣٣٠١.

(٤) الحشر: ٢.

الْكِتَابِ﴾ يعنى بنى النَّضير ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(١).

إلى قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢). يعنى بنى قينقاع، إلى قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

وقد ذكر ابن إسحاق أن بنى النَّضير لم يُسْلِم منهم إلا رجلان: أبو كعب ابن جحاش «يامين بن عمير» وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما، فأحرزاها.

قال: وقد حدثني بعضُ آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين: ألم تَر ما لقيتُ من ابن عَمِّك، وما هَمَّ به من شأني؟

فجعل يامينُ ابن عمير لرجل جُعْلاً على أن يَقْتُلَ له عمرو بن جحاش، فقتله فيما يزعمون.

هكذا يذكر ابنُ إسحاق.. ولكنَّ الأمْرَ أعظمُ من ذلك في دَلالته وعِبْرَته، ويكفي أن يتدبَّر الإنسانُ سورةَ الحَشر؛ ليعرف ما اضْمَرَ القومُ وما أظهروه، ويرى كَمْ أساءَ النِّفَاقُ إلى أهله، وما أَوْقَعَهُ بهم وبمَنْ صَدَّقهم أو رَكَنَ إليهم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾(٤).

---

(١) الحشر: ١١.
(٢) الحشر: ١٥.
(٣) الحشر: ١٦، ١٧.
(٤) الحشر: ٢.

فإن ما وقع لا يراه إلا أصحابُ الأبصار النَّافذة إلى حقائق الأمور وإلى مواقع العِبْرة والعِظَة، فقد جاء في السورة قولُه تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾(١).

إنها حالةٌ تدعو إلى النَّظَر، النَّظَر إلى أولئك الذين يجمعهم نَسَبٌ من الكُفْر والضلال.

المنافقون وفريق من أهل الكتاب يقولون لإخوانهم الذين كفروا، وهى أُخُوَّةٌ قد تُرَى آثارُها في تداول الأيام، حيث يركَنُ هؤلاء إلى أولئك، ولا تلبَث الأيامُ أن تكشف ما هُم عليه من كَذِبٍ وبُهْتَان، وأن يرى الناسُ منهم ما أخبَرَ الله به.

ففي الوقت الذي نزلت فيه هذه الآياتُ كان المنافقون - وعلى رأسهم عبدالله بن أُبَىّ بن سلول - يمشون إلى بنى قُرَيْظَة الذين لم يأتْ مصيرُهم بَعْدُ، وإلى غيرهم من يهود المدينة، ويُنْذرونهم مما يُمكنُ أن يَفْعَلَ بهم محمدٌ ﷺ كما فَعَلَ ببني النَّضير، ويُعطونَهم العَهْدَ كما أعْطَوْا بنى النَّضير.

ولقد جاءت الأيامُ بما يَنْطِقُ بصِدْق آيات الله، وبما يُخزِى اليهودَ ويَفْضَحُ المنافقين.

لقد قال المنافقون لإخوانهم من بنى النَّضير: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾**(٢).

---

(١) الحشر: ١١.

(٢) الحشر: ١١، ١٢.

لا وفاءَ بِعَهْدٍ، ومن لم يَفِ لله كيف يُرْجَى منه أنْ يَفِيَ للناس؟!

فلو أُخْرِجَ حُلفاؤهم ما خَرجُوا معهم، ولو قُوتِلُوا ما قَاتَلُوا إلى جانبهم، ولو قَاتَلُوا إلى جانبهم لَمَا صَبَرُوا على القتال ولَمَا ثَبَتُوا عند اللقاء؛ لأنهم إن قَاتَلُوا إنَّما يُقاتِلُون بأجسامهم لا بقُلوبهم، فإذا اشتدَّ البأسُ وَلَّوا الأدبارَ، وكانت الدائرةُ عليهم وعلى مَنْ حَالَفَهم.

وهذه الآياتُ من أنباء الغَيْب التي كَشَفَت الأيامُ - فيما بَعْدُ - عن تأويلها على الوجه الذي أخبرتْ به، والتي سَجَّل بها التاريخُ مُعجزةً ناطقةً بأن هذا القرآنَ العظيمَ من لَدُنْ عليمٍ خبير.

*****

ومما يجب علينا - ونحن نتدبَّرُ سورةَ الحشر - أن نرى حديثَ القرآن في هذه السورة عن أُخُوَّة وأُخُوَّة:

أُخُوَّة الأنْصَار والمهاجرين والذين جاءوا من بعدهم: في الآيات (٨ -١٠) من هذه السورة وأُخُوَّة المنافقين وطوائف من يهود: في الآيات (١١-١٧) من هذه السورة لنَرَى ما يُحَقِّقه صِدْقُ الإخلاص لله والوفاءُ، وما يجنيه أصحابُ الكفر والرِّياء نرى هذا وذاك لنَقِفَ عند أَمْرٍ ذي بَالٍ في صَلاح الإنسان، وهو النَّظَر في كُلِّ أمْرٍ إلى العاقبة والجزاء، فإنَّ لكُلِّ أَمْرٍ عاقبتَه، وإنَّ لكُلِّ عَمَلٍ جزاءَه.

والقرآن الكريم يُلْفِتُ النَّظَر إلى ذلك دائماً وهو يُحدثنا بالوقائع، ويُرينَا نتائجَ الأعمال وهو يُخاطب رسولَه ﷺ؛ ليجعلَ العاقبةَ - دائماً - نُصْبَ عينيه ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1].

ولهذا جاءت الآيات الخاتِمَة من سورة الحشر على هذا النحو:

---

(١) هود: ٤٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

جاءت دعوة مُجَدِّدَة إلى تقوى وإلى إخلاص العبودية لله وحده، وإلى أن يخلى المؤمن من نفسه من كُلِّ واردَةٍ من وَارِدَاتِ النفاق الذي إن تمكَّن من صاحبه قَتَلَهُ شَرَّ قِتْلَه، وصَارَ بِه إلى أَسْوأ مَصير.

وذلك يكون بأن ينظر المؤمنُ في أعماله وما يُقدمه لغيره من خَيْر يجده عند الله، وألاَّ يكون حاضره وعاجل أَمْره هو الذي يحكُم أعمالَه، ويُوجِّه تصرُّفاته، كما هو الشأن عند المنافقين والضالين.

وتقوى الله هي خَوْفُهُ، واتِّقاء مَحَارمه، ومن تقوى الله: مُحاسبة المرء نفسَه ومراجعتها في نوازعها ورغباتها

وإن هذه المحاسبة وتلك المراجعة لا تُعطيان ثَمَراً طيباً إلاَّ إذا وقف المرءُ من نفسه موقفًا حَذِراً، حازماً؛ حتَّى يقهَر هواهَا، ولا تغلبه على أَمْرِه، وذلك لا يكون إلا باستحضار تقوى الله والخوف من عقابه.

---

(١) الحشر: ١٨ - ٢٤.

وفي قوله: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ دلالة على سُوء عاقبة أولئك الذين نَسُوا الله، لا في أُخراهم فحسب، بل في أنفسهم وهم يتقلبون فيما زُيِّن لهم.

ومَنْ أنساه الله نفسَه خسر دنياه وآخرته؛ لأنه عندما يُنسيه الله نفسَه يقع في السيئات والموبقات وهو يحسب أنه أحرز ما يَرغَبُه ويَهْواه من زينة الحياة

وصدق الله العظيم: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾[1].

يُحذِّر الله أهلَ الإيمان أن يقعوا فيما وقع فيه غيرُهم، فيُصيبهم من سُوء العاقبة ما أصابهم ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾.

وهذا لا يكون إذا اتقى الإنسانُ ربَّهُ، وحاسب نفسَه

والذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم هم أهل الضلال من المنافقين واليهود الذين خَلَتْ قلوبُهم من تقوى الله وخشيته، فلم ينظروا فيما يُقَدِّمُون لغَدٍ، بل شُغِلُوا بما هم فيه من متاع الحياة الدنيا، ونَسُوا الله ولم يذكروا عقابَه، ولم يستحضروا جلالَ الله وعظمتَه.

فكان هذا النسيان لله ولجلاله وعظمته سببًا في نسيانهم لأنفسهم، فلم ينظروا إلى المصير الذي هم صائرون إليه، ولم يَرَوْا البلاءَ المُحْدِقَ بهم من هذا الضلال الذي هم فيه.

ولو أنهم ذكروا الله وذكروا حسابَه وعقابَه، لذَكَرُوا وجودَهم هذا الذي يَسْبَحُ في بحار الضلال، ولَعَمِلوا - جاهدين - على إنقاذ أنفسهم مما هم فيه،

---

(١) الكهف: ١٠٣ - ١٠٥.

فكان نسيانُهم لله هو الدَّاءُ الذي رَانَ على قلوبهم وأعمى أبصارَهم، فلم يَرَوْا حقًا، ولم تَقْبَل نفوسُهم ما هو حَقٌّ.

والفاسقون: هم الخارجون عن طريق الحق الذي قام عليه الوجود كُلُّه، وهم الخارجون على فطرتهم التي فطر الله الناسَ عليها.

﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

تلك هي العاقبةُ التي لا مَفَرَّ منها، فمَن اتَّقَى الله، ونَظَرَ إلى ما قَدَّمَ لَغَد، وحاسب نفسَه على ما قَدَّم، وراقبَها في كُلِّ ما يُظهِرُ أو يُبْطِنُ، فقد أَعَدَّ نفسَه ليكون من أصحاب الجنة، وذلك هو الفوز العظيم

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(١).

وشتَّان بين من يُعَذَّب في النَّار، ومَنْ يُنَعَّم بنعيم الجنة.. نسألُ الله أن يجعلنا من أهلها.

ثم تجيء هذه الآية لتُشير إلى أسباب الهداية التي حفظها الله لمَنْ تفكَّرَ وتدبَّرَ واهتدى للتي هي أَقْوَم

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٢).

وهل تكون النجاةُ إلا لمَن استقام واهتدى، لا لمن اتَّبَعَ هواه، وأعْرَضَ عن ذِكْر ربِّه؟

ذاك شأنُ القرآن وتلك مكانتُه **﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**(٣).

---

(١) آل عمران: ١٨٥.
(٢) الإسراء: ٩.
(٣) الحشر: ٢١.

فإن خَيْرَ مُذَكِّر يُذكِّرُ بالله، ويدعو إلى خشية وتقواه، هو القرآن الكريم الذي يقول الله - سبحانه وتعالى - عنه: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾(١).

من أجل هذا ورحمةً بالخَلْق تكفَّل الله بحفظه، وأبقاه لتنقطع الحُجَّةُ، وتبطل المعذرة.

فمن قرأ القرآنَ واستمع إليه، ولم يخشع قلبُه له، ولم يَنْضَح بقطراتٍ من الخير والإحسان، ولم تَبْرُق في سمائه بُرُوقُ الهُدَى والإيمان فلْيَعْلَم - إن كان له أن يعلم - أنه دون بعض الأحجار قُبولاً للخير وتأثراً به.

*****

وبعد.. فإن الآيات الخاتمة قد خَلُصَت لذكر بعض أسماء الله - سبحانه - وصفاته، لم يُذكَر مع أسماء الله تعالى وصفاته غيرها.

فهل من مُتَدَبِّر لها؛ فإنها زادُ لخشوع القلوب أيُّ زاد.

إنها ثماني صفات جاءت متتابعة من غير حَرْف عَطْف؛ لأنها - جميعاً - صفاتٌ واحدةٌ لمَوْصُوف واحد، فكما أن الله واحدٌ في ذاته - سبحانه - هو كذلك واحدٌ في صفاته.

فإذا تعامل الإنسان مع الله - سبحانه - بأسماء يدعوه بها، وَجَبَ أن تكون هذه الأسماء دالةً على ما لله - سبحانه وتعالى - من كمال وعظمة وجلال وسلطان ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾(٢).

وقد جاءت الآيات الثلاث التي عرضت هذه الأسماء الكريمة لله سبحانه، جاءت متلاحمةً، لها جلالُها وكمالُها من أن يدخل بينها، أو يدخل إليها ما ليس منها.

---

(١) القمر: ١٧.
(٢) الأعراف: ١٨٠.

إنها صفاتٌ وكُلُّ صفة منها تجمع جميع الصفات، وهذه السورة - سورة الحشر - قد بُدئت بالتسبيح وخُتمَتْ باستمرار التسبيح ودوامه:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١] هذه الآية في بدايتها.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢] وتلك خاتمة السورة.

كما اقترنت الآيتان الأولى والأخيرة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ففي هذه الآية رَدُّ العَجُز على الصَّدْر؛ لأن صَدْرَ السورة مماثلٌ لآخرها.

خَتَمَهَا بالتسبيح كما ابتدأها به، إشارةً إلى أنه المقصود الأعظم، والمبدأ والنهاية، وأن غاية المعرفة لله تَنْزيهُهُ عمَّا لا يليق به.

وهكذا يتلاقى المَطْلَعُ والختامُ في تناسقٍ والتئام، تسبيحٌ في ماض وحاضر ومستقبل، تتجاوب فيه الخلائقُ جميعاً بفطرتها

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٣].

ومَنْ قرأ هذه السورةَ، وعرف ما تحدثت عنه، أَيْقَنَ أن الوقائع والأحداث لا تَحْسُن معرفتُها أو الإفادةُ منها بعيداً عن تدبُّر ما أُنزل فيها من آيات، لأن الوقائع التي أنزل الله فيها قرآنًا لا يُخاطِبُ بها من وقعت الوقائع فيهم أو في عصرهم فحسب.

وإنما يُخَاطَبُ بها الإنسانُ حيث كان في أيِّ زمان أو مكان، ومن أجل ذلك حُفِظَ القرآن فحُفِظَتْ به دلالةُ الوقائع لمخاطبة الإنسان، فإن الوقائع - التي تُتْلَى آياتُها - تُعْرَفُ بها سُنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول في جميع الأحوال.

*****

(١) الحشر: ١ .
(٢) الحشر: ٢٤.
(٣) الإسراء: ٤٤.

ومن وقائع المدينة التي تُتْلَى آياتُها واقعةُ بنى النَّضير، فقد نزل في بنى النَّضير سورة الحشر بأَسْرِهَا، وفيها يَذكر ما أصابهم الله به من نقْمَته، وتُعْرَف - بتلاوتها - المقدماتُ والنتائجُ والأسبابُ والعواقب ﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾(١).

بدأت السورة بالإخبار بأن الله سبَّح له ونزَّهَهُ عما لا يليق به كُلُّ شئ في السماوات والأرض، وأنه العزيز الذي لا يُغْلَبُ، الحكيم في كلِّ تصرفاته وشئونه ومن آثار عِزَّته وحِكْمَته ما تحدثت عنه السورةُ من عاقبه بنى النَّضير، وهم من يهود المدينة.

وكانوا قد صالحوا النبي ﷺ بعد الهجرة على ألاَّ يكونوا عليه ولا لَهُ.

فلمَّا كانت وقائعُ المسلمين في بَدْر وأُحُد نكثوا عهدهَم، وحالَفُوا قريشًا عليه ﷺ، ووقع منهم ما وقع من قول وفعل.

فحاصرهم الرسول ﷺ في حصونهم التي ظنُّوا أنها ما نعَتُهم، فلم تمنعهم، ثُمَّ أجلاهم الرسولُ ﷺ عن المدينة.

وقد بيَّنتْ السورةُ حُكْمَ الفيء، فذكرت أنه لله ولرسوله ولذي القُرْبَى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وللفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم.

ثم تحدثت عن الأَنْصَار وفضلِهم، وإيثارهم المهاجرين على أنفسهم ولو كانت لهم حاجةٌ إلى ما آثروهم به.

ولَفَتَتْ النَّظَرَ إلى ما كان من وُعُود المنافقين لبنى النَّضير، في قولهم:

﴿**لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ**﴾ وفضحت كذبَهم وتغريرَهم في ذلك.

---

(١) الأنفال: ٤٢.

ثم خلصت السورة إلى تذكير المؤمنين بما ينبغي أن يكونوا عليه من تقوى الله والتزوُّد للمستقبل القريب والبعيد، ولا يكونوا كالذين أعرضوا عن الله فأنساهم أنفسَهم.

وخُتمت السورةُ ببيان شأن القرآن وعظيم تأثيره ذلك لأن الله الذي أنزله هو الله الذي لا إله إلا هو له الأسماءُ الحُسْنَى.

وجاءت خاتمتُها كبدايتها في تنزيه الله عمَّا لا يليق، وقد سبَّح ويُسَبِّحُ له كُلُّ ما في السماوات والأرض، وهو الغالب الذي لا يُعجزه شئٌ، الحكيم في تدبيره وأفعاله.

فما من دلالة في آية إلا ويراها المتدبِّرُ في واقعة وواقع.

عندئذ تكون دراسة الوقائع مُقْتَرِنَةً بعِبْرَتها وتبصرتها، غير مُنفصلة عن آياتها، فهي - في حقيقتها - ليست أحداثًا وقعت وانتهت، وإنما هي أحداثٌ ماضيةٌ تُرينَا سُنَنَ الله الباقية، وكفي بذلك بلاغًا وذكرى ونذيرًا للعالمين.

﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١).

*****

(١) إبراهيم: ٥٢.